فهم يجتازون وشائج القرابات وسائر الحميات في ظلال وشائج الإيمان إلى تحقيق مرضاة الله لأنهم حزب الله: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[١].

وكما أن الرسول ﷺ: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٢] قائلاً لهم: (لا يرحم الله من لا يرحم الناس)[٣] و(لا تنزع الرحمة إلا من شقي)[٤] و(إنما يرحم الله من عباده الرحماء)[٥] كذلك الذين معه:

﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾:

تربطهم وشيجة الإيمان بالله فقط مهما تفارقوا بسائر الوشائج، فهم نسبهم وسببهم الإيمان، وجنسيتهم الإيمان، يعيشون في ظلاله إخوة متحابين، لا تجد فيهم إلا أخوة الإيمان ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٦]. إذاً فكل المنازعات والمشاغبات بين المؤمنين إنما هي من ضعف الإيمان أو جهلهم موقع الإيمان، وهنا لك أعداءنا يتربصون بنا الدوائر ليوسعوا الخرق بيننا، والشيطان ينزغ بيننا: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[٧] ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٨].

فهؤلاء الذين يدعون الإسلام ثم يحاولون في تفريق كلمة المسلمين

(١) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.
(٣) الدر المنثور ٦: ٨٢ - أخرجه ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والترمذي عن جرير عنه ﷺ.
(٤) المصدر: أخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة عنه ﷺ.
(٥) المصدر: أخرج ابن أبي شيبة عن أسامة بن زيد عنه ﷺ.
(٦) سورة الحجرات، الآية: ١٠.
(٧) سورة الإسراء، الآية: ٥٣.
(٨) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٠.

وتوسيع الخلافات فيما بينهم، أولئك هم حزب الشيطان، فاحذروهم مهما كبرت عمَّاتهم وطالت لحاهم، أعاذنا الله من شرّهم ولا سيما في قبلة الإسلام ومولده.

فرغم أن الواجب رفض الخلافات البعيدة المدى في مملكة الحج، نرى عملاء بزي العلماء يخطبون ويكتبون في الحرمين المباركين ما اكتتبه واختطبه لهم الاستعمار الكافر عارفين أو غافلين ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[1] ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾[2]!.

وكما كان الرسول ﷺ أول العابدين فالذين معه:

﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾:

تراهم وكأنهم راكعون دوماً وساجدون، أجل ولأنهم حياتهم الركوع والسجود لله في كافة صورها على مختلف صيغها وهيئاتها، في صلاتها لله وفي كل صِلاتها بخلق الله، في حياتهم الفردية لله وفي الجماعية ابتغاء فضل الله ورضوان الله، فكل حياتهم كأنها صلاة وكلها صِلات وكلها لله ركوعات وسجودات طالما تختلف الهيئات، فما الركوع والسجود في الصلاة إلّا تعبيراً عينياً عن أصالة العبودية والخضوع لله، المتعرقة في نفوسهم.

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾:

شجرة لها ساقان، شجرة العبودية الناحية منحى رضوان من الله لأنه الله، وفضل من الله حيث وعد عباده الصالحين، فضلاً في الدنيا وفضلاً في الآخرة، فيعملون لهما ويأملون من الله الفضل فيهما.

(١) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٤، ١٠٥.
(٢) سورة النحل، الآية: ٢٥.

ثم وآثار ذلك السجود لائحة في سيماهم لمن ينظر بنور الله:

﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾:

فالسيما هي العلامة اللائحة للناظرين بنور الله دون الجاهلين: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾[١] فأنت أنت تعرفهم والذين معك كما ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَاهُمْ﴾[٢] فهذا من سيما التعفف والايمان، ثم هناك سيما النفاق والإجرام: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾[٣] هذا - ولكن سيما النفاق هي أحياناً بحاجة إلى تعريف وحتى للرسول: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾[٤].

ومهما كان سيما النفاق غامضاً وبحاجة إلى تعريف، فسيما الإيمان من أثر السجود لائحة للناظرين بنور الله دون تعريف - فـ:

﴿سِيمَاهُمْ﴾: علامتهم كائنة لائحة ﴿فِي وُجُوهِهِم﴾ -: وجهاتهم واتجاهاتهم ومواجهاتهم، وفي ذوات وجوههم يرى الاتجاه إلى الله لائحاً، وكل ذلك ﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ الذي يعيشونه لله حياتهم.

فلا يعني أثر السجود وسيما الوجوه ثفنات الجباه فقط: التي قد تصطنع مغبة الاستحمار الاستغفال، وحتى ممن لا يعرف سجوداً لله اللهم إلا للّهو! أو ممن يسجد مصلحياً تاجراً أم ماذا[٥]؟

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧٣.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٤٦.
(٣) سورة الرحمن، الآية: ٤١.
(٤) سورة محمد، الآية: ٣٠.
(٥) الدر المنثور ٦: ٨٢ أخرج الطبراني والبيهقي في سننه عن حميد بن عبد الرحمن قال: كنت عند السائب بن يزيد إذ جاء رجل في وجهه أثر السجود فقال: لقد أفسد هذا وجهه أما والله ما هي السيما التي سمى الله ولقد صليت على وجهي ثمانين سنة ما أثر السجود بين عيني!.

فليس الأثر الظاهر على الجباه من السجود هو هو سيما الإيمان، كما ليست الجباه الخالية عن الثفنات سيما اللاإيمان، فقد يجتمعان وقد يفترقان.

فأثر السجود وهو أثر العبادة المتمثلة تماماً في السجود، هو يشمل الركوع كذلك كما ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ وهو يشمل كافة نهضات العبادة لله في كافة صورها، فأثر العبادة لائح في سيماهم، في ملامح وجوههم حيث تتوارى الخيلاء والكبرياء، لائحة عليها الوضاءة الهادئة والصباحة النبيلة، كذلك وفي ملامح وجهاتهم ومواجهاتهم واتجاهاتهم، ألّا نمردة فيها ولا فرعنة ولا استغلال، ولا أية محاولات وتصرفات إلّا على ضوء شريعة الله!

وهذه السيما السامية لائحة عليهم واضحة يوم الدنيا ويوم الدين[١] هنا لأولى البصائر وهناك لأهل المحشر أجمعين حيث ﴿تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾[٢]!.

«إذا نظرت إلى أحدهم عرفت أنه من أهل الصلاة بأثر الوضوء وإذا أصبحت عرفت أنه قد صلى من الليل، وهو العفاف في الدين والحياء وحسن السمت»[٣].

﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ ذلك القدسية الفردية والجماعية السليمة الإسلامية في الذين مع الرسول مثلهم السامي في التوراة، كما في بشارات عدة تصف الرسول ﷺ وأمته بقوة في دين وصمود ضد أعداء الدين[٤].

---

(١) المصدر: أخرج الطبراني في الأوسط والصغير وابن مردويه بسند حسن عن أُبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: في قوله ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩] قال: النور يوم القيامة.
وأخرج الطبراني عن سمرة بن جندب أن رسول الله ﷺ قال: «إن الأنبياء عليهم السلام يتباهون أيهم أكثر أصحاباً من أمته فأرجو أن أكون يومئذٍ أكثرهم كلهم واردة وأن كل رجل منهم يومئذ: قائم على حوض ملآن معه عصا يدعو من عرف من أمته ولكل أمة سيما يعرفهم بها نبيهم».

(٢) سورة الطارق، الآية: ٩.

(٣) الدر المنثور ٦: ٨٢: أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ في الآية قال: إن جبريل قال: إذا نظرت إلى الرجل من أمتك عرفت...

(٤) راجع رسول الإسلام في الكتب السماوية، قسم البشارات التوراتية.

مثل ما في (مزمور ١٤٩: ١ و٦ - ٩) من زبور داود: «هللويا. رنموا للرب ترنيما جديداً، أقيموا تسبيحه في مجمع الأصفياء... يبتهج الأصفياء في المجد يرنمون على أسرتهم (٦) تعظيم الله في أفواههم وبأيديهم سيف ذو حدين (٧) لإجراء الانتقام على الأمم والتأديب على الشعوب (٨) لإيثاق الملوك بالقيود وشرفائهم بكبول من حديد (٩) ليمضوا عليهم القضاء المكتوب، هذا فخر يكون لجميع أصفيائه. هللويا».

فإنها تجمع مواصفتهم بالشدة على الكفار والرحمة بينهم أنفسهم وأنهم أصفياء... وهكذا تجد آيات في عموم التوراة وخصوصها بحق الأمة الإسلامية[١].

﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ﴾ أخرج فرخه وفرعه دون أن ينقص فرخه من قواه بل ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ ناصر عوده وأصله، أو أن الزرع آزر فرعه، أو المعنى مؤازرة الأصل الرسالي والفرع الذي معه، فالرسول برسالته وتوفيق الله يصنع مؤمنين ويؤازرهم، وهم بإيمانهم وتوفيق الله يؤازرونه ويعززونه.

ومن جراء هذا الإخراج وتلك المؤازرة «فاستغلظ» الزرع بشطئه ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ وفي ذلك الإخراج المؤازرة الاستواء، إعجاب ومسرة لسائر الزراع الرسل: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ كما أعجبوا من تشريفه قبل تكونه، ومن ثم ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ فالكفار يزيدهم هذا الزرع الأخير تغيظاً وتميزاً ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾[٢] وأمّا رسل الله والمؤمنون بهم فيزيدهم سروراً واعتزازاً، فإنهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾!

(١) خصوص التوراة هي الأسفار الخمسة الموسوية، وعمومها كتب العهد العتيق بأجمعها من أي نبي إسرائيلي كان.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠.

وهكذا تكونت الرسالة الإسلامية برسولها والذين معه، حتى كونت كياناً قديماً لا قِبل له، إلا على من لا يمشون على خططها، تتدرج من ضعف في عِدة وعُدة إلى قوة فوق قوة، ولكي تشمل العالم كله ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

ترى ألم يكن الذين معه - مع تلكم المواصفات التي تجعلهم في قمة الإيمان - من المؤمنين الصالحين، حتى يقول الله هنا في مجال المغفرة والأجر العظيم «منهم» لا - كلهم؟

علَّه تأكيد بعد تصريح بشروطات الإيمان في تحقق وعد الله كي لا ينساها أو يتناساها أناس فيحسبون الإيمان لفظة قول أو تصوراً أو عقيدة فقط، وإنما الإيمان الذي يظهر في صالحات، وصالحات تزهر من إيمان، هما دوماً سبب الأجر العظيم والغفران.

وها هي الآيات الإنجيلية التي تمثلهم بهذا المثل السامي:

## أنباء الملكوت وأبناؤه

الملكوت وهي حقيقة الملك تكويناً وتشريعاً، كثيراً ما تعني الشريعة الإسلامية، فأبناؤها أبناء الملكوت ولهم في الإنجيل الذكريات التالية:

١ - «إن كلام الملكوت يزرع في قلوب الناس كما تزرع الحنطة في المزرعة والله صاحبها» (متى ١٣: ١ - ٢٤) (مرقس ٤: ١ - ٢٠) (لوقا ٨: ١ - ١٥).

٢ - «ملكوت الله ينشأ آناً فآناً وينمو سنة فسنة ويكبر عصراً فعصراً ويتقوى دونما انقطاع» (مرقس ٤: ٢٦: ٢٩).



٣ - «ينمو الملكوت ويتكاثر جداً بين بعض الأقوام لمدة قليلة دون أن

يبقى كافر ولا مشرك كالخردل، يؤثر كلام الملكوت في قلوب الناس ويؤدي بهم إلى الإيمان» (متى ١٣: ٣١ - ٣٣، مرقس ٤: ٣١ - ٣٣).

٤ - «في أبناء الملكوت حبات الحنطة التي تعطي مائة ضعف وفيهم أولاد إبليس» (متى ١٣: ٢٤ - ٣٠ و٣: ٤٧ - ٥٠ و٢٢: ١٠).

٥ - «أبناء الملكوت هم ملح الأرض وبقدر ما يحتاج الطعام إلى الملح فكذلك كل العالم وجميع أقوام كرة الأرض يفتقرون إلى أبناء ملكوت الله» (متى ٥: ١٣) (مرقس ٩: ٥) (لوقا ١٤: ٣٤ - ٣٥).

٦ - «أبناء الملكوت هم نور العالم» (متى ٥: ١٤ - ١٦).

٧ - «تبقى أولاد الشيطان مع أبناء الملكوت على جنب إلى يوم القيامة» (متى ١٣: ٢٧ - ٣٠).

٨ - «أبناء الملكوت لا يعطون القدس للكلاب ولا يطرحون دورها أمام الخنازير» (متى ٧: ٦).

٩ - «إن ملكوت الله هو مثال ملكوت السماوات لا يفكرون في جمع الخزائن ليكونوا أغنياء في الدنيا لأنهم عما قليل يتركون الدنيا ولذاتها وخزائنها» (متى ٦: ١٩ - ٢١).

١٠ - «الأغنياء غير الشاكرين الذين يتوكلون على مال الدنيا هم خارجون ملكوت الله» (متى ١٩: ٢٢: ٢٤).

هذه مواصفات الملكوت وأنباؤه وأبناؤه، وتلك عشرة كاملة من الأناجيل تتمثل في الرسول الأعظم محمد ﷺ وأمته.

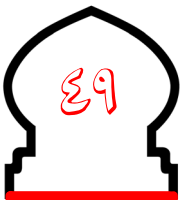


# سُورَةُ الحُجُرَاتِ

# سُورَةُ الحُجُرَاتِ

مدنية - وآياتها ثمان عشرة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ

﴿ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾

سورة هي ثورة قارعة على اللّاأخلاقيات العارمة، المتبقية في الجماعة المسلمة من جاهليات، أو المتسربة فيها من عادات سيئات، نازعة هذه الكتلة المؤمنة عن أخلاق النسناس إلى أخلاق الناس ما يؤدبه بجنب الله ورسوله من عدم التقديم، وما ينظم سلوكه مع المؤمنين وسائر الناس في المجتمع الحيوي، وما يمتاز به إنسان في شريعة الله، وهي على قلة آيها كثيرة المعنى، غزيرة المغزى تنبع بحقائق تفتح للعقول والقلوب آفاقاً بعيدة، ما تتجاوز حجمها مئات المرات، لو اتخذها المؤمنون نبراساً في سيرتهم ومتراساً في مصيرتهم لعاشوا أعزة أعلون، وليكونوا مثلاً للأخلاق الفاضلة، ومُثلاً للإنسانية الكاملة، فيكونوا مدينة فاضلة يحكم فيها أخلاق الله، يأمن فيها المؤمنون بالله، ومن هم في ذممهم على ضوء شريعة الله، شرط الّا يقدموا بين يدي الله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾:

ترى ماذا تعني ﴿بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ﴾؟ إنها الأمام تشريعاً أم سواه، وليست اليدين الجارحتين، فاليدان لا تختصان بهما وإن لمن له جارحتان؛ كالموارد التي لا تناسبانها مثل عقدة النكاح: ﴿أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾[1] وكسائر الموارد للمخلوق الذي ليست له جارحتان: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[2] ﴿إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾[3]

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٧.
(٢) سورة سبأ، الآية: ٤٦.
(٣) سورة المجادلة، الآية: ١٢.

فكيف إذاً لمن تستحيل له اليدان الجارحتان، مهما تمحَّل له من لا يعرف معاني الكلام: إن له يدين جارحتين كما تناسب ساحة قدسه، من تناقض جارح لساحة قدسه[١] قارح لتجرده عن كافة الحدود والأمثال.

فهنا التقديم بين يدي الله، ليس أن تقدم نفسك في مشيتك على الله فلا له مشي على الأرض أم سواها، ولا أن هناك - لو كان - تماشياً وتسابقاً حتى ينهى عنه، وإنما هو تقديم لك عليه في اعتقاد أو مقال أو فعال كتشريع وحكم أم ماذا؟ فـ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾[٢] ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾[٣].

فمن التقديم بين يدي الله تقديم لحكم على حكم الله، في عقيدة أم قول أم فعل، سواء أكان نقضاً لحكم الله بعد ما حكم فهو تشريع، أم سبقاً لحكم الله قبل أن يحكم وإن وافقه بعدما حكم، فإنه فسوق وخروج عن التسليم لله.

و﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ليس ليختص التقديم الممنوع بالقول لأنه فقط

(١) فما هو إلا مثل ما يقال: إن الله يجهل كما يناسب ألوهيته، ويعجز كما يناسب ألوهيته، وينزل من سماء إلى سماء ويصعد كما يناسب ألوهيته! فإن من الصفات والأفعال ما لا تناسب ساحة الألوهية في أي معنى أخذت - كهذه وكالظلم والنسيان والسهو والخطأ - وسائر ما يختص بالمخلوقين - كما أن منها ما يختص به تعالى دون أن يشاركه فيها غيره بأي معنى كان - كالرحمانية والرحيمية والمعبودية والمشرعية.. وإن كان منها ما تنسب إلى الله كما يناسب ذاته وتنسب إلى غيره كما تناسبه - فاللفظ مشترك والمعنى متباين - كالوجود والعلم والقدرة - فالله موجود والخلق موجود ولكن الوجودين متباينان - فأين الوجود الأزلي والحادث وأين الأبدي والفاني - والمجرد والمادي - وأين وأين - ومن هذه الألفاظ اليد والعين وأشباهها فإنها تستعمل في معاني مختلفة حتى لمن له هذه الأعضاء، فكيف بمن ليس له أعضاء؟
فالمعلوم قطعياً هنا أن اليدين بالنسبة لله ليستا الجارحتين، وإنما صفات أو أفعال تناسب ذاته تعالى، لا أجزاء من ذاته فليست له أجزاء.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٧.

(٣) سورة الرعد، الآية: ٤١.

المسموع دون العقيدة والفعل فإنه ثني بـ ﴿عَلِيمٌ﴾ فيشمل غير القول مما يعلم من فعل أم عقيدة أم ماذا؟

ومن ثم التقديم بين يدي رسول الله ﷺ هو كالتقديم بين يدي الله، ولا فارق بينهما إلا أصالة في الله ورسالة في رسول الله دون أي استقلال عن اللّهو ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾[1] وإلا أن لرسول الله أمام الجسم كما له أمام الرسالة، فـ «لا تقدموا بين يدي رسوله» تعم تقديمك نفسك أم سواك على رسول الله ﷺ في مشيته أو قيامه أم جلوسه وقعوده، فكما أن روحه برسالته تتقدم على سائر الأرواح، كذلك جسمه الذي يحمل تلكم الروح القدسية، لا يقدم عليه أي جسم ولا أي روح، فجسمه ﷺ أشرف من سائر الأرواح فضلاً عن روحه!

والنهي عن التقديم هنا وهناك يعني وجوب التأخير، والتسليم لله ولرسوله، دون مساواة أو مساماة مع الله أو الرسول في حكمه أم سواه، وإنها داخلة في ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ حيث التقوى تتنافى والمساواة كما تنافي التقديم ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في ألوهيته وفي رسوله أن تفسقوا عن مثلث العقيدة والقول والعمل في حكم الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ ما تقولون ﴿عَلِيمٌ﴾ ما تنوون وتعتقدون وتعملون.

ولماذا ﴿لَا تُقَدِّمُواْ﴾ دون «لا تتقدموا»؟ لأن التقدم يخص المخاطب نفسه دون سواه، والتقديم يعمه وسواه، فكما يحرم التقدم على الله ورسوله في حكم أو سواه، كذلك أن تقدم غيرك على الله أو على رسوله، وإن كان ذلك الغير رسول الله ﷺ أن تقدمه على الله، أو إماماً من الأئمة تقدمه على رسول الله ﷺ، أو أن تساوي وتسامي بين الله وسواه أو بين رسول الله وخلقٍ سواه.

ومن ثم فلا يختص حكم التقديم بالحكم، فإنه يعم الحكم وسواه، كأن



(١) سورة النساء، الآية: ٨٠.

يقدم نفسه أم سواه على رسول الله ﷺ في مشيه أو جلوسه أو قيامه أو كلامه أم ماذا؟ فإن الرسول مقدم على الأمة بحكم رسالته، كما الله مقدم على الخلق بألوهيته في كل شيء، فلا يقدم بين يدي كيانه كيان، ولا بين يدي عبوديته سواه، ولا طاعته سواه، ولا حرمته سواه، ولا بين يدي حكمه سواه، كما ولا يسامى في ذلك أو يساوى بسواه.

فما للذين يدَّعون الإسلام يقدمون حكم فلان وفلان على حكم الله، وحديث فلان على كتاب الله، واجتهاد فلان على سنَّة رسول الله ﷺ، وإذا قيل لهم هذه بدعة؟ قالوا: نعم بدعة حسنة[1]! أو قيل لهم: حديث يخالف كتاب الله؟ قالوا: إسناده صحيح تقبَّله العلماء! فما لهم لا يؤمنون؟ وإذا ذكِّروا لا يذكرون، فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون.

وإنما هو كتاب الله، أو الرواية الموافقة لكتاب الله، أو الثابتة غير المخالفة له، دون أي اجتهاد من قياس أو استحسان أم ماذا؟ من تشريع بغير مصدره، تقديماً بين يدي الله ورسوله أو مساواةً، وإن عدم التقديم بين يدي الله ورسوله لزام الإيمان بالله وتقواه، فسواه كفر بالله وطغواه.

وها هو أدب نفسي مع الله ورسوله، كأصل وحيد في التشريع حكماً وفي سواه سواه، منبثقاً من تقوى الله النابعة من الشعور أنه الله وليس سواه، ورسوله الرسول ليس سواه، وشعوراً أنه سميع عليم، يسمع كل تقديم في مقال، أو تقديم في فعل أو فكرة أو حال، فلا يرى المؤمن تقديماً هنا أو هناك ولو رؤيا مجنحة في خيال.

ولقد تأدب جماعة من المؤمنين الأولين بهذا الأدب لحد كان رسول

(١) وبين بدعة وحسنة تناقض بيِّن لان البدعة إدخال ما ليس من الدين في الدين أم إخراج، أو من الدين عنه - فالبدعة معارضة للدين - فهل توجد معارضة حسنة للدين؟ وما أحمق هؤلاء الذين يوجهون بدعاً جازفة بلفظ الحسنة - كأن اللفظة تحول الماهية السيئة إلى الحسنة. فما لهم أنى يؤفكون.

الله ﷺ يسألهم عن اليوم الذي هم فيه والمكان الذي هم فيه، فيتحرجون أن يجيبوا - على علمهم - إلا بقولهم: الله ورسوله أعلم[١].

ومن التقديم بين يدي رسوله رفع الصوت فوق صوته والجهر له بالقول ونداءه من وراء الحجرات:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢﴾:

فليكن صوت النبي فوق الأصوات كما أن صيته فوق الصيات، صوت في حال أو مقال، وصيتٌ في حال على أية حال، ومن سوء الأدب أن يرفع صوت فوق صوته، بل والجهر له بالقول كجهر بعضكم لبعض، وإن كان أدنى من صوته، فلتبرز مكانته الرسالية بين الجموع على المكانات، وليكرم فوق كل الشخصيات فـ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾[٢]!

إنه قد يرفع صوت فوق صوته ﷺ فهو محظور، وقد يجهر له بالقول كما يجهر لسواه على سواء، فهو أيضاً محظور، وإن كان دون صوته، فالمرغوب إذاً غض الأصوات عند رسول الله ﷺ دون أن يساوى في صوت، أو أن يسوى بغيره في صوت، فضلاً أن يرفع فوق صوته صوت، فلو حصل أي من ذلك استخفافاً به ﷺ لكان كفراً، وخطاب الإيمان هنا ينفيه! ولو كان إساءة أدب فمن أفسق الفسق، والايمان قد ينفيه، ولو كان لا شعورياً كعادة جاهلية دون تقصُّد استخفاف أم إساءة وإيذاء، كما قد تقصده

(١) كما جاء في حديث أبي بكرة نفيع بن الحارث الثقفي أن النبي ﷺ سأل في حجة الوداع أي شهر هذا! قلنا: الله ورسوله أعلم - فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: أليس ذا الحجة؟ قلنا: بلى! قال: أي بلد هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه فقال: أليس البلدة الحرام؟ قلنا: بلى - قال: فأي يوم هذا؟ قلنا: اللّه ورسوله أعلم - فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه - فقال: أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى!..

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

- فقط - الآية، فهو إحباط للأعمال ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ لا تشعرون خطأ الجهر ورفع الأصوات، ولا عظمته ومداه، ولا أنه لحد الإحباط: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾[1] ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾[2]: مثلث اللاشعور الرهيب، أو مثنَّاه لمن يشعر خطأه ولا يشعر مداه ولحد الإحباط، فأما بعد هذا البيان الإشعار فهم شاعرون! إذاً فالخبط أغوى والحبط أقوى على من يهبط من مكانة النبي الأقدس ﷺ.

وقد يعني الحبط هنا ما يخص أعمال الخطاب، أن لو لم تكن فيه إساءة أدب وإيذاء لكان صواباً وثواباً، ولكنها حابطة بسوء الأدب، أو يعني حبط الأعمال بين هكذا خطاب إلى المَتاب، حبطاً فقط للثواب، لا لأصل الصحة كالصوم والصلاة، فإن الحبط في إساءة اللاشعور يختلف عن الاستخفاف الكفر المحبط لأصل الأعمال، والإساءة الفسق التي تحبط منها قدرها، فلكل إحباط قدره، كما أن لكل صالحة ثواب قدرها.

فـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ . . . وَلَا تَجْهَرُوا۟﴾ مخافة ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ هكذا ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ مساءة أعمالكم هذه، ولا من جرائها: أن تحبط أعمالكم.

فيا له خطاباً رهيباً حبيباً، يحذرهم هذا المزلق الذي ينتهي بهم إلى حبوط أعمالهم وهم لا يشعرون، ولقد ارتعشت قلوب بعض وارتجفت تحت هذه الوقعة القارعة أن خشي بعضهم أن يكون من أهل النار كثابت بن الشماس[3] وكان من طبعه رفيع الصوت دون أن يرفعه عمداً، لا هتكاً ولا

(١) سورة النور، الآية: ١٥.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٤٧.
(٣) روى الإمام أحمد بسند عن أنس بن مالك قال: لما نزلت هذه الآية - وكان ثابت بن قيس بن شماس رفيع الصوت - فقال: أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله ﷺ أنا من أهل النار، حبط عملي وجلس في أهله حزيناً ففقده رسول الله ﷺ فانطلق بعض القوم إليه =

إساءة ولا جهلاً، فلم تشمله الآية، فإنها تنهى عن ذلك علماً أو جهلاً باختيار، لا جهراً دون اختيار.

كما ندم آخرون مما جهروا جهراً كعادة متبقية جاهلية حوّلها الإسلام إلى أدب طاهر، مثل الخليفة أبي بكر والخليفة عمر فلما رفعا أصواتهما فوق صوت النبي ﷺ نزلت الآية فتابا واختجلا(١).

وترى أن الجهر بالقول، لا للرسول ﷺ وهو حي، وإنما لغيره وفي مسجده، أم الجهر في قراءة القرآن أو الدعاء عند قبره، هل إن ذلك محظور(٢)، عطفاً على الجهر له بالقول وهو حي؟ الحق أنه لا محظور، وإلا لحظر على الأذان المجهور به للصلوات في مسجده، وعلى خطبة الجمعة وسائر الخطب فيه، وعلى الدروس التي تلقى فيه، أم وسائر الجهر

= فقالوا له: تفقدك رسول الله ﷺ ما لك؟ قال: أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ وأجهر له بالقول، حبط عملي، أنا من أهل النار، فأتوا النبي ﷺ فأخبروه بما قال فقال النبي ﷺ: لا - بل من أهل الجنة - قال أنس: فكنا نراه يمشي بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة.

(١) في صحيح البخاري حدثنا يسرة بن صفوان بن جميل اللخمي حدثنا نافع بن عمر عن ابن أبي مليكة قال: كاد الخيّران أن يهلكا: - أبا بكر وعمر رضي الله عنهما -، رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم (في السنة التاسعة من الهجرة) فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس رضي الله عنه أخي بني مجاشع (أي ليؤمر عليهم) وأشار الآخر برجل آخر - قال نافع: لا أحفظ اسمه (في رواية أخرى أن اسمه القعقاع بن معبد) فقال أبو بكر لعمر - رضي الله عنهما - ما أردت إلا خلافي، قال: ما أردت خلافك - فارتفعت أصواتهما في ذلك فأنزل الله تعالى الآية، قال ابن الزبير فما كان عمر رضي الله عنه يسمع رسول الله ﷺ بعده هذه الآية حتى يستفهمه. وروي عن أبي بكر رضي الله عنه أنه لما نزلت هذه الآية قلت: يا رسول الله ﷺ والله لا أكلمك إلا كأخي السرار (يعني كالهمس).

(٢) يروى عن الخليفة عمر رضي الله عنه أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبي ﷺ قد ارتفعت أصواتهما فجاء فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً - أقول لعله رضي الله عنه حرم ذلك لكونه معاركة في مسجده ﷺ إلا أنه كيف يفرق في حكم الله بين أهل الطائف والمدينة؟ أنا لا أدري!.

ما لم يكن فيه هتك لساحة الرسول ﷺ كجهر المعاركات التي تحصل تعصباً عند قبره، وجهر الكلمات المفرقة لجموع المسلمين، الهاتكة لحرمهم، الفاتكة لحرَم الرسول وحُرَمه، كالمجاهرة بتكفير جماعة غفيرة من المسلمين، ونسبتهم إلى الشرك، لأنهم يقبِّلون ضريح الرسول ﷺ الطاهر حباً فيه لا عبودية، وكما أن غيرهم يقبلون أولادهم وأيدي وجباه علمائهم حباً أو احتراماً لهم، تلك إذاً قسمة ضيزى ظالمة، إن ذلك شرك وليس هذا شركاً! جمع الله شمل المسلمين - آمين.

من ثم - وبعد التنديد الشديد بمن يرفعون أصواتهم فوق صوت النبي أو يجهرون له بالقول - يمتدح من يغضون أصواتهم عند رسول الله ﷺ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ٣﴾:

إن غض الأصوات عند الرسول ﷺ وهو كسرها، يرمز إلى واجب التخضّع عنده في أي صوت أو صيت، لأنه يحمل رسالة الله، فلا يساوى بغيره أو يسامى، وإنما غضٌّ وحضٌّ ظاهر في حال ومقال من قلب ممتحن للتقوى، وكما الجهر له ورفع الصوت على صوته، هو من قلب مقلوب ممتهن بالطغوى، فهؤلاء تحبط أعمالهم، وأولئك الأكارم لهم مغفرة عما تعرضهم من لمم وسواه، وأجر كريم حيث يغضون أصواتهم عند رسول الله ﷺ، وإنما ﴿رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ لا محمد بن عبد الله ﷺ، ولأن الغض عنده غض عند الله، فلذلك هو نابع عن تقوى الله، وليعش المؤمن غضاً لكيانه ككل عند الله وعند رسوله، فلا يقدم بين يدي الله ورسوله.

ثم ومن سوء الأدب مناداة الرسول من وراء الحجرات وإن كانت غضيضة غير عالية على صوته، ولا جاهرة كجهرنا لبعض، فإنما النداء المؤدب هي المواجهة الحضور:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾:

لقد وفدت العرب من كل مكان إليه ﷺ عام الفتح الوفود، فكانت جفاة الأعراب ينادونه من وراء الحجرات[1]، المطلة على المسجد النبوي الشريف: يا محمد اخرج لنا، فكان يكره الرسول ﷺ هذه الجفوة الفجوة المزعجة، فمسح الله تعالى غبار الانزعاج عن خاطره الأقدس أن ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فهم جفاة جاهلون لا يبغون هتكاً لساحتك ولا فتكاً لكرامتك، فاغفر لهم هفوتهم منبها لهم لكي لا يعودوا فتحبط أعمالهم، كما ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: ارحمهم كما الله، أن تعلِّمهم عن جهلهم، واغفر لهم كما الله فإنهم لا يعقلون، وإن كانت ثمة قلة يعقلون، فينادونك من وراء الحجرات تساهلاً في حرمتك، أو هتكاً لحرمتك كالمنافقين.

فليصبر المؤمن حتى يخرج إليه الرسول ﷺ فإنه لا يصبر في حجراته عن حوائج المرسل إليهم إلا لضرورة بيتية عائلية، أو استراحة شخصية، هما لزام له، ولكي يخرج إلى المؤمنين فارغ البال، غير مضطرب الحال، فـ «كان خيراً لهم» أما هو فلا يألو جهداً في سبيل الله، وكل عقبة له يجتازها، وكل صعوبة يتحملها، إنها تزداده خيراً، ولكنكم أنتم المؤمنون! ليس لكم أن تكونوا له أذىً، فاصبروا له حتى يخرج، وثابروا حتى لا يتحرج ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ عما مضى ممن لا يعقلون، وكذلك لمن يعقلون لو كانوا يرجعون عن جفوتهم العامدة.

وهكذا يجب أن تراعى حرمة الرسول الأقدس ﷺ ثم ومن حذا حذوه

(١) الدر المنثور: أخرج البخاري في الأدب وابن أبي الدنيا والبيهقي عن داود بن قيس قال: رأيت الحجرات من جريد النخل مغشى من خارج بمسوح الشعر وأظن عرض الباب من باب الحجرة إلى باب البيت نحواً من ستة أو سبعة أذرع واحزر البيت الداخل عشرة أذرع وأظن سمكه بين الثمان والسبع.